سيميائية أسماء الشخصيات في المتن الروائي
لأحمد التوفيق

د. عبدالكريم فاضيل
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق
المغرب

التقديم: الشخصية وإشكالية البناء الفني.

إن الهدف من وراء دراسة نسق الشخصيات لا يقف عند حدود مجموعة من العلاقات الثابتة، وإنما نحاول عبر قراءتنا لهذه الشبكة من العلائق التي نسجها السارد حول الشخصيات المحورية، موظفا فيها دهاءه وذكاءه ومؤهلاته لاستيعاب ما تحيط به من أحداث، ووقائع، وتناقضات مجتمعية تؤثثها الصراعات السياسية والاجتماعية والأزمات الاقتصادية والثقافية لحظة كتابة النص الروائي، الإمساك بالكون الدلالي والإيديولوجي الذي يؤطر النص بشكل صريح أو ضمني.

وقبل أن نبحث عن هذه القيم المبثوثة في النصوص الروائية، نقف في هذا المبحث عن الصيغة التي اتخذها الروائي أحمد التوفيق من خلال ساردة/ساردية في البناء الفني لشخصياته (في المتن الروائي) وأوجه التشابه والاختلاف في هذا البناء، ولعل الروائي لا يرى حرجا في التصنيف بين شخصياته انطلاقا سواء مما تحمله من أسماء أعلام وألقاب، أومن ناحية القراءة والوظيفة والزمن والمتخيل والواقع ومن حيث العرض.

1. سيميائية أسماء الشخصيات في المتن الروائي.

لا يمكن لأي روائي أن ينفي وجود ذلك الخيط الرابط ولو كان دقيقا بين عمله وشخصياته، وأحمد التوفيق شأنه شأن عدد من الروائيين العرب، حينما تختمر لديه المادة الخام لعمل روائي لابد وأن يضع في حسبانه الوظيفة المهمة لاسم العلم الشخصي للشخصية أو لقبها، أو أوصافها، لأن ذلك هو ما يكسبها تميزا وتفردا ضمن المسار السردي من أجل بلوغ الموضوع المرغوب فيه، ولكي يبلغ مقصده عليه أن يشغل آلية من الآليات السيميائية لاختيار أو توليد التسمية العلمية للشخصية، ومن بين هذه الآليات التي يلجأ إليها أحمد التوفيق:

1-1. آلية الإحالة.

إن استعراض أسماء أعلام الشخصيات المحورية والفاعلة الحاضرة في المتن الروائي، نلاحظ الحضور لما يسمى بالشخصيات المرجعية أو التاريخية التي تتمتع بوجود حقيقي في الواقع، وحينما تحضر في النصوص الروائية لدى أحمد التوفيق تحضر وهي "محملة بالإرث الثقافي في شكل علامات مرجعية ورموز نصية وسيميائية تستوجب من المتلقي أثناء التعامل معها أن ينطلق من خلفية معرفية مزودة بمعلومات مسبقة لتحقيق اتساق النص وانسجامه"[1]،[1] والملاحظ أن الروائي "يستعمل جملة من المستويات اللغوية التي تناسب أوضاع الشخصيات الثقافية والاجتماعية والفكرية"[2]،[2] ومن هذه الشخصيات:

. **أبو موسى**: هذه الشخصية في رواية "جارات أبي موسى" شخصية مرجعية وظفها أحمد التوفيق بما تحمله من إرث روحي وديني وثقافي ورمزي، وقد استغل سيرة هذا الرجل استغلالا أمينا استنادا لما أورد في حق هذا الرجل في الكتاب الذي حققه تحت عنوان: «التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لأبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي المعروف بابن الزيات 617هـ- 1220م، من الصفحة (205 إلى 208)؛ ونفس الشخصية ورد اسمها في كتاب كينيث براون "موجز تاريخ سلا 1000-1800" بالصفحة (43). وبالاطلاع على سيرة هذا الرجل في الكتابين معا، نجدها متطابقة تماما الشخصية الموظفة في الرواية؛ وقد أشرنا إلى ذلك فيما سلف.

-**همّو**: حينما قارنا المواصفات والمعطيات المرتبطة بهذه الشخصية في رواية "شجيرة حناء وقمر" بالمعطيات الواردة في كتاب «المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر..إينولتان 1850-1912" لأحمد التوفيق، لاحظنا التشابه الكبير بين مسار الشخصية في الرواية وسيرة قائد يدعى الجيلالي بن علي أوحدوا الدمناتي (1875-1904)، ورث أباه القائد علي أوحدو القيادة الذي مكث يحكم إينولتان ثلاثين سنة؛ ومن الأقوال المتطابقة الواردة في كل من الرواية، وكتاب أحمد التوفيق، ما ورد من قول سردي في بداية الرواية: «هكذا أمضى علا ثلاثين سنة يمثل السلطان ويجبي ما يتوصل إليه من الضرائب" ص (7)، وما ورد في الكتاب المحقق: «لم تمض سنتان على تولية مولاي الحسن، وعلى نكبة شيخ آيت واودانوست حتى توفي القائد علي أوحدو، وكان في مدة تقارب الثلاثين سنة حكم فيها إينولتان"[1].[3]

وقد تعامل أحمد التوفيق مع هذا التطابق بنوع من الإيهام، إبعادا منه لهيمنة الشخصية التاريخية على الشخصية الروائية، وحتى يبقي سمة التخييل على عمله الروائي قائما، ولعل تغيير الروائي للاسم الشخصي للشخصية الروائية، ما هو إلا تقنية وأداة فنية مقصودة من الروائي حتى تتناسب حمولة الاسم "همّو" التي تحيل لـ"الهمّ" مع مساراته التصويرية والسردية، التي تطابقت مع وضعيته النفسية والاجتماعية والفكرية، حيث ظل يحمل همّا طيلة الرواية إلى أن قتل، وهو ما عبر عنه السارد في القول: "فإما أن اسمك "همّو" يذكر سيدنا بكلام البقر، وإما أنه يذكره بشيء معيب مضحك" ص (80)، والواضح أن التطابق قائم ما دام فعل القتل هو الآخر واردا في كتاب أحمد التوفيق، ومما جاء في الكتاب: "ولما كان الجيلالي في سجدة بصلاة الجمعة بمسجد القصبة المجاورة لداره، طعنه الشخص المذكور طعنة مات منها"[2]،[4] وهذا يتطابق مع القول السردي في الرواية "وفي وقت السجود أخرج هذا الابن خنجرا من تحت جلبابه وارتمى على القائد همو وطعنه في ظهره طعنات قاتلة" ص(274).

1-2 آلية الاشتقاق.

يبدو أحمد التوفيق من خلال انتقائه لأسماء شخصياته واعيا تماما بآليات بناء هذه الأسماء، إنه لم يكتف بصيغة بعينها، وإنما تفنن في اختياراته، ومن بين هذه الآليات آلية الاشتقاق من أسماء المعاني، كما هو الشأن في التسميات التالية:

- **الطاهرة**: ورد اسم هذه الشخصية في رواية "جارات أبي موسى" وهو اسم مشتق من المصدر

"الطهارة"، وفي هذه التسمية قصدية مباشرة من الروائي، لموافقة ما يحمل اسم العلم "الطاهرة" من معان مع المواصفات التي تحملها الشخصية في النص الروائي، ومما جاء في حقها على لسان السارد "أما في مهارة التدبير وتوقد الذكاء ورقة الحديث وخفة الروح مع إلمام بطرف من علم الشرائع والأدب فشامة مدينة لكبرى زوجتي القاضي مولاتها الطاهرة" ص (9).

-**السالمة**: وبنفس طريقة اشتقاق اسم "الطاهرة"، اشتق الروائي اسم "السالمة" من المصدر "السلامة"، كتسمية لشخصية نسائية في رواية "شجيرة حناء وقمر"، وهي إحدى زيجات الشخصية المحورية "همو"، وهي الشخصية الوحيدة التي بقيت حاضرة من بداية الرواية إلى نهايتها، ولعل تسميتها بالسالمة مرتبط بتمكنها من الرجوع إلى بيت أبيها سالمة.

1-3 . آلية الوصف:

لقد لجأ أحمد التوفيق في كثير من الأحيان إلى إضافة أوصاف إلى اسم العلم لكونها "محددة بشكل جوهري في فرز علم من علم آخر"[1]،[5] ومن بين التسميات الواردة في المتن:

العامل جرمون . القائد همو- فاظما المجدوبة . الحاج إدريس- القاضي الزناتي: هذه نماذج لشخصيات ارتبط اسمها عن قصد بأوصاف محددة حتى تساهم هذه الآلية في قراءة النص، و"تحقيق تشاكله واتساقه وانسجامه النصي والذهني والافتراضي"[2]،[6] فكل شخصية من هذه الشخصيات انسجمت مواصفاتها ووظائفها في الرواية مع الوصف الذي منحه إياها السارد.

1–4 . آلية العنونة:

لقد استغل أحمد التوفيق أسماء شخصياته المحورية في بناء عنواني روايتيه "جارات أبي موسى"، و"غريبة الحسين"، ويظهر من هذا الاختيار مدى الترابط القائم بين تسمية العمل الأدبي وتسمية الشخصيات المحورية في العمل نفسه، والأبعاد الدلالية التي تنتج عن هذا الترابط في فك بعض المستغلقات في العمل الأدبي.

1–5 . آلية الاستعارة:

إن توظيف أحمد التوفيق لهذه التقنية مكنه من "التلاعب بأصوات الشخصية تنغيما وإيقاعا، وتطويع صيغتها الصرفية لمقاصد خاصة وعامة، وأهداف مباشرة وغير مباشرة"[3]،[7] إذ نلاحظ أن الروائي حينما حول اسم" محمد" في رواية "شجيرة حناء وقمر"

إلى "همّو"، فإنه قام بذلك قصد إخراج الاسم الشخصي من معناه التقريري إلى اسم يحمل أبعادا مجازية واستعارية، تتناسب مع مساراته التصويرية في الرواية، حيث أصبح "همّو" اسما على مسمى، يحمل من الهموم، ما يكفي ليسبب للآخرين هموما.

1–6 آلية الغرابة:

نعثر في المتن الروائي على ألقاب حملت طابع الغرابة كما هو الشأن في تسمية الشخصية المحورية في رواية السيل "محمد بيزّين"، فالسارد في الرواية نفسه يعترف بأنه لا يدري معنى هذا اللقب "بيزّين"، وفي ذلك إشارة من الروائي على الهوية المجهولة لهذه الشخصية من جهة، ومن أجل إثارة شهية القارئ لتتبع مسارها لمعرفة مصيرها في النهاية.

1–7 آلية الكنية:

إن حضور التاريخ في المتن الروائي، فرض على أحمد التوفيق اللجوء إلى أسماء أعلام تتصدر بألفاظ: (ابن– ولد– أبو..) ومنها: (ابن الحفيد – أبو سالم – ولد الشهباء – أم الحر – زوجة الحاج – خالة علال...) وفي غالب الأحيان كان يراد بها التعيين فقط.

2– الشخصية وإشكالية التصنيف:

فقد دأب الدارسون ونقاد الرواية على "تصنيف الشخصيات تصنيفا يتواءم مع الخصائص الفنية، والسمات الذاتية، والوظائف التي تناط بكل شخصية من الشخصيات"[1]،[8] وعندما نقوم باستعراض الشخصيات المحورية والفاعلة في المتن الروائي، فإننا لا محالة نجد أنفسنا أمام أصناف من الشخصيات وفق الأدوار التي تقوم بها في كل رواية، ومنها:

2– 1 الشخصيات الجاذبة والمنذرة في المتن الروائي.

في كل عمل سردي قد تحضر شخصيات جاذبة، يميل إليها القارئ ويتعاطف معها بحكم انسجام ميولاته ورغباته مع وظائفها، ولكونها تقوم بأدوار خيرة، أو لكونها ترفض الانصياع لهيمنة شخصية متجبرة، ومن هذه الشخصيات شخصية "شامة" في رواية "جارات أبي موسى" التي تقاوم جبروت العامل "جرمون"، وترفض الانصياع لرغباته، وشخصية "كلود" في رواية "غريبة الحسين" التي انسلخت عن ثقافتها، وقبلت بأن تنخرط رفقة أبيها جوزيف في مهمة اعتبرتها الخلايا الوطنية مهمة ذات أبعاد وطنية وقومية، لا تتوافق والرؤية الاستعمارية، كما تنازلت عن كثير من كبريائها قصد بلوغ قلب من تحب، إلا أنها في الأخير تختار رجلا آخر، وجدت فيه ما لم تجده في الحبيب الأول.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق، أن الشخصيات الجاذبة في المتن الروائي تكاد ترتهن بالعنصر النسوي، إذا ما قورنت بالشخصيتين المحوريتين في روايتي "السيل" و"شجيرة حناء وقمر"، حيث يجد القارئ نفسه بفعل قصدية السارد، ينفر من بداية الرواية إلى نهايتها من شخصية

"همو"، وبين التعاطف والنفور من شخصية "محمد بيزين"، الذي رمى بنفسه في آخر الرواية نحو مصير مجهول، بعد أن اكتسب جاذبية وعطف القارئ بحكم ما حققه في فضاء مدينة مراكش من مساعدة الوطنيين حتى تحقيق الاستقلال، ومن ثروة تؤهله لبناء أسرة رفقة من أحب.

ويستفاد من هذا التصنيف، أن حضور المرأة في أعمال التوفيق تجاوز ذلك الحضور المؤثث للعمل الأدبي فقط، إلى حضور مشارك في الحياة الاجتماعية بالمجتمع المغربي، ويظهر ذلك من خلال مواقف "شامة" من جبروت العامل جرمون، ومن مواقف "السالمة" من زوجها القائد "همو"، ومن مواقف "لومي" المرأة الحبيبة من محيطها الرافض لعلاقتها ب "محمد بيزّين". أما شخصية "كلود" الفرنسية التي تحولت في آخر الرواية إلى "منّة" ما هو إلا فقناع لامرأة تجاوبت مع محيط ثقافي وحضاري إلى درجة الاندماج والذوبان التام فيه، وكان لها فضل عظيم. حسب اسمها الجديد من خلال تدوينها لأحد أهم رموز الحضارة المتأصلة. على الأمة المغربية.

2-2. الشخصيات التاريخية أو المرجعية.

يقصد بها تلك الشخصيات التي "تتمتع بوجود تاريخي حقيقي، وقد ورد ذكرها في المصادر التاريخية"[1]،[9] ولعل أهم شخصية ينطبق عليها هذا الوصف في المتن الروائي هي شخصية "أبو موسى" وقد فصلنا الحديث في هذا سابقا، كما تحضر في المتن شخصيات تاريخية مع تغيير في أسمائها لأغراض فنية، يراد منها إبعاد صفة التاريخي على أحداث الرواية، وينسحب هذا على "همو" الذي تتطابق شخصيته مع شخصية أحد القواد في فترة زمنية من تاريخ المغرب.

2-3. الشخصيات العجائبية.

تستوقفنا ونحن نستعرض الشخصيات الحاضرة في المتن الروائي لأحمد التوفيق شخصيات حيوانية اتخذت مواصفات تتسم بنوع من الغرائبية/العجائبية، ولم يأت توظيفها عرضيا، وإنما تظهر قصدية الروائي في ذلك واضحة، حين منح لكل شخصية من هذه الشخصيات بعدا رمزيا أريد به خدمة السياق الذي يؤسس لتثبيت قيم موضوع الرواية؛ فحينما وظف "اللقلاق" في رواية "جارات أبي موسى" وظفه كشخصية تتشارك في الجوار مع شامة إلى جانب "أبي موسى"، وقد خصه السارد بأوصاف رفعته إلى مصاف الأولياء، بل إلى عارف بالغيب، يقول السارد: «كائنان يشهدان على ما يجري في الفندق ولا يتكلمان: اللقلاق وأبو موسى، ولعلهما الوحيدان اللذان يعرفان ما ستأتي به الأيام" (ص 96)، وفي وصف آخر بعد أن قُتل رميا بحجارة طفل "وهوى الطائر المهيب إلى الأرض وسط الفندق ميتا"(ص168)، وبموت هذا الجار المهيب يخرجنا السارد من زمن إلى زمن آخر، ويؤهلنا لالتقاط الإشارات لما سيحدث للجار الثاني، وفي هذا محاولة من الروائي لإضافة التجريب في التجربة الروائية المغربية.

عندما استقدم السارد الثعبان في رواية "السيل" فإنه استقدمه كشخصية مارست حقها في الوجود، ودافعت عن فضائها، وانتقمت من "محمد بيزين" الذي انتهك حرمتها، يقول السارد: «هو الثعبان الذي نهشه ومات"(ص145)، وفي قول آخر: «هذا هو الذي سرقني، أخذ مالي ودخل إلى جحره، السيل لم يظلمني أبدا" (ص 141).

2 4. الشخصية اليهودية والنصرانية

شكلت الشخصية اليهودية عنصرا فاعلا في بناء رواية "شجيرة حناء وقمر" بالمقارنة مع الروايات الأخرى، فقد غاب هذا الصنف من الشخصيات في روايتي "السيل «و"غريبة الحسين"، في حين كان حضورها باهتا في رواية "جارات أبي موسى" من خلال شخصية تدعى "ابن الزارة" تمتهن الطب؛ وقد "شكل اليهود أقلية بسلا، لكنهم لم يجتمعوا في حي خاص بهم الملاح، إلا في القرن التاسع عشر، فباستثناء الطقوس والقرابة، مثّل اليهود جزءا لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وأسهموا في بلورة المدينة ككل"[1]،[10]

والملاحظ أن نفس الاسم وظفه الروائي في رواية "شجيرة حناء وقمر" التي تحفل بعدد مهم من الشخصيات اليهودية، التي ساهمت بمساراتها في تشكيل عوالم الرواية، إلا أن هذا الاسم يحضر بقوة في الرواية كظل يلازم الشخصية المحورية، وأسندت له وظائف متعددة في الرواية إلى جانب يهود آخرين أمثال باروخ وندري، شليمو، الذين قدموا كتجار يتحكمون في مصير القواد والشيوخ بأموالهم.

والواضح أن توظيف الشخصية اليهودية في هذه الرواية، له ما يبرره بحكم أن زمن حكايتها كان زمنا لعبت فيه الأيادي الأجنبية دورا حاسما في تهييء الظروف المواتية لدخول المحتل الفرنسي إلى المغرب.

وإلى جانب هذا الصنف من الشخصيات، تحضر في المتن الروائي شخصيات نصرانية، فباستثناء رواية "غريبة الحسين" التي اعتمدت في بنائها على شخصية "كلود" الفرنسية الأرستقراطية النصرانية رفقة عدد مهم من الشخصيات النصرانية من جنسيات متعددة، فإن حضورها في الروايات الأخرى تفاوت من رواية لأخرى، حيث لعبت شخصيتا "فارياس" وزوجته "فيبي" في رواية "السيل" دورا حاسما في تأهيل الشخصية المحورية "محمد بيزّين" لكي يصبح مواطنا متعلما، ومناضلا يساعد الوطنيين في مقاومة المحتل الفرنسي؛ كما وظفت شخصية نصرانية تدعى "علي سانشو" في رواية "جارات أبي موسى" أسلمت لتتزاوج بشامة، إلا أن هذا الزواج سرعان ما يتفكك ليعود النصراني إلى أصوله.

إن المهم في هذا الحضور هو الصيغة الفنية التي اعتمدها أحمد التوفيق في هذا التوظيف، إذ كان السياق النصي هو الذي يفرض وجودها.

الهوامش:

[1] مجلة " الراوي" ع 24 فبراير 2011. مقال "سيمياء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية" د.جميل حمداوي.ص56.

[2] د. عبدالملك مرتاض"في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد". سلسلة عالم المعرفة 240. ص 120.

[3] أحمد التوفيق "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850 . 1912). ص 149.

[4] أحمد التوفيق "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850 . 1912). ص160.

[5] . مجلة " الراوي" ع 24 فبراير 2011.مقال "سيمياء اسم العلم الشخصي في الرواية العربية" د. جميل حمداوي. ص56.

[6] – المرجع السابق ص 57.

[7] – المرجع السابق ص 58.

[8] – إبراهيم خليل "بنية النص الروائي، دراسة". ص 194.

[9] . إبراهيم خليل "بنية النص الروائي، دراسة". ص 202.

[10] كينيث براون "موجز تاريخ سلا . 1000 . 1800" ترجمة محمد حبيدة وأناس لعلو. ص 15.